عمري بن يهودا *

العنصرية الكامنة في النضال المدني الإسرائيلي

ملخّص

هذه ليست مقالة وإنما «حفرية نقدية»، تكشف البنية العميقة للعنصرية المتجذّرة داخل ما يُسمّى بـ «النضال المدني» في إسرائيل، مظهرةً كيف يتوارى العنف البنيوي خلف خطاب علماني–ليبرالي يدّعي الإنسانية بينما يساهم فعليًا في قمع المطالب الفلسطينية. ينطلق النص من مشاهد يومية تبدو هامشية، لكنها تفضح اقتصادًا عرقيًا يحدّد قيمة الأجساد ومراتب البشر، ويعيد إنتاج علاقات السيادة بين اليهود والفلسطينيين في السياسة والثقافة والإعلام. ينتقد الكاتب الأصوات النقدية اليهودية التي تحصر مسؤولية العنف في اليمين الديني أو في «حماس»، متجاهلةً دور الأغلبية العلمانية المركزي في استمرار منظومة الإخضاع والقهر بحق الفلسطينيين كشعب. وتُظهر القراءة كيف يتحوّل التعاطف المعلَن إلى أداة لإعادة تثبيت الهيمنة وفق نموذج «ضربني وبكى، سبقني واشتكى»، وكيف يعيد الخطاب المدني إنتاج المنطق نفسه الذي يصنع «المخطوف» اليهودي و«الأسير» الفلسطيني. في النهاية، تدعو الورقة إلى قراءة الصراع من خلال عدسة العِرق، باعتباره المفتاح الذي يكشف حدود الخطاب الليبرالي ووهم حياده الأخلاقي.

الكلمات المفتاحية:

اقتصاد العِرق؛ الهيمنة الليبرالية؛ الاستشراق الداخلي؛ مفارقة العسكرة.

* الدكتور هَنّا (عمري) بن يهودا باحث في الآداب اليهودية المقارنة في مركز موزس مندلسون (Moses Mendelsohn Zentrum) في بوتسدام (Potsdam).

المقدمة

عامان من النضال المدني المتواصل في إسرائيل شدّدا على قيمة الحياة الإنسانية، لكن مع تجنّب أي [رؤية] للمطالب السياسية الفلسطينية بالمساواة. وقد أسهمت أصوات يهودية نقدية عديدة في ترسيخ هذا التجنّب.

عمري بن يهودا

في البناية التي أعيش فيها [في القدس الغربية] تنظّف الدّرج امرأة عربية اسمها أمونة وتعيش في رام الله. أحيانًا نتبادل الحديث. طفل في الثالثة من عمره، وهو ابن أحد الجيران، كان يراها دائمًا منحنية فوق الدلو، وذات مرة تفاجأ حين رآنا نتحدث. رأيت الدهشة في عينيه. سألني عن اسمها، فأخبرته. ثم سأل عمّا كنّا نتحدث به بالعربية، فأخبرته. فكّر قليلًا ثم قال: "أمونة نصف إنسان ونصف كلب، صحيح؟" سألته لماذا يقول ذلك. فشرح: "هي نصف كلب لأنها تمشي طوال الوقت على أربع، ونصف إنسان لأنها تعرف كيف تتكلم أيضًا."

دافيد غروسمان، **الريح الصفراء** (١٩٨٧)

حتى قبل ٧ تشرين الأول ٢٠٢٣، كان حلفاء إسرائيل في الغرب يستندون في نقدهم دائمًا إلى الإشارة إلى حكومة نتنياهو، وائتلاف اليمين، واليمين الديني المتطرف. وبهذا يؤمّنون بقاء الصورة الكاملة لـ "الروح الإسرائيلية" باعتبارها مدنيّة، علمانية، غير متطرفة، وبالتالي معتدلة، بل وإنسانية. أما الغرب "الديمقراطي"، فهو بالطبع ملتزم بـ "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها"؛ وهو مصطلح مبهم يُستخدم في الغالب ككناية عن عنف لا يتزعزع ضد السكان الأصليين، لكنّه ليس الوحيد. فبعض أهم الأصوات النقدية داخل النخبة الفكرية اليهودية يركّز نقده على النزعات المسيحانية والعنصرية داخل المجتمع الإسرائيلي، والتي تتجلّى خصوصًا في الالتزام الحماسي للصهيونية الدينية بجهاز الأمن والجيش.

أظهر المؤرّخ شاي حزقاني (Shai Hazkani) وعالِم الاجتماع تامير سورك (Tamir Sorek) كيف استطاعت كتابات الحاخام يتسحاق غينزبورغ (Rabbi Yitzchak Ginzburg) أن تُشكّل تيارات قوية داخل الصهيونية الدينية، وخصوصًا بين فئة الحردليم (المتزمتين القوميين)، وهي تيارات تسلّلت لاحقًا إلى المجتمع الإسرائيلي الأوسع، وقادت إلى دعم واسع بين الشباب الإسرائيليين لسياسات التطهير العرقي.[١] ويبيّنان كيف تحوّل الخطاب الحكومي بعد ٧ أكتوبر، مثل شعارات "النصر المطلق" و"محو العماليق"، إلى أهداف تبدو معقولة يجب السعي إليها حتى ولو جاء ذلك على حساب حياة الأسرى الإسرائيليين، وهي أفكار كانت مطروحة مسبقًا في كتابات غينزبورغ قبل عشرين عامًا. الأمر نفسه ينطبق على الحاخام شاؤول ماغيد (Rabbi Shaul Magid)، أستاذ اللاهوت المعروف، الذي كتب مطولًا عن الحاخام مائير كهانا، الحاخام الأميركي الذي ارتبط اسمه أكثر من غيره بالعنصرية اليهودية. ينسب ماغيد خطأً إلى كهانا فكرة ترحيل العرب من فلسطين التاريخية،[٢] بينما هذه الفكرة كانت مُعلنة صراحة منذ بدايات الصهيونية السياسية لدى عدد من المفكرين الصهيونيين، بل ونوقشت عمليًا في حكومات إسرائيلية متعددة. وقد نُفّذ الترحيل جزئيًا بالفعل، خصوصًا بحق سكان "قطاع اللاجئين في غزة" (وهذا يجب أن يكون الاسم الأدق وليس "قطاع غزة")، كما حاول رئيس الوزراء الراحل إسحق رابين (زعيم حزب العمل) تنفيذ ذلك في فترة أقرب نسبيًا حين أبعد مؤيدين لحركة "حماس: في التسعينيات.

لكنّ المظهر الأكثر لفتًا لهذه الظاهرة في أوساط المثقفين اليهود النقديين ظهر قبل شهر. فقد ربط مفكّران بارزان بين بشاعة أفعال "حماس" وما يريانه عائقًا أخلاقيًا يمنعهما من إعلان التزام واضح بالنضال الفلسطيني. وكما أنّ ربط العنف

■ العودة الجماعية من جنوب غزة إلى شماله في ٢٧ كانون الثاني ٢٠٢٥. (أ.ف.ب)

الإسرائيلي بحكومة إسرائيل، واليمين المتطرف، يخفّف المسؤولية عن المجتمع الإسرائيلي الأوسع، فإن تحميل "حماس" كل المآزق يشكّل أيضًا وسيلة للتهرّب من مواجهة قمع التيار الإسرائيلي السائد لنضال الفلسطينيين من أجل تقرير المصير. في مقالة لعالمة الاجتماع اللامعة إيفا إيلوز (Eva Illouz) نُشرت سابقًا في (Die Zeit)،[3] وفي مقابلة مع المتخصص في الشرق الأوسط أساف دافيد (Assaf David)، أحد القلة من الباحثين الإسرائيليين الذين يتحدثون فعلًا مع الغزّيين ويلتزمون بجدّية بإيصال أصواتهم؛ وكلاهما نُشرا في صحيفة هآرتس في عطلة نهاية أسبوع ٧ آب، تظهر حماس وكأنها المسؤولة عن العنف الإسرائيلي منذ تشرين الأول ٢٠٢٣.[4] ورغم أنّ دافيد لا يعلّق على هذه الاتهامات (ما يعني ضمنًا إقرارًا بها)، تكرّر إيلوز حجّة إسرائيلية شائعة بقولها إن على حماس أن تكون قد توقّعت ردّ إسرائيل. إن فصل أفعال دولة ديمقراطية، بما يشمل حكومتها المنتخبة، عن نواياها أمر يصعب تبريره؛ فهو يمنع أي مساءلة إسرائيلية لها عن أفعالها، ويُظهر في الواقع احترامًا ضئيلًا للشعب الإسرائيلي نفسه، وهو صاحب السلطة السيادية الوحيدة بين النهر والبحر. كما أنّ النية هي محور الجدل القانوني الدولي حول الإبادة الجماعية. ويتناول كلّ من إيلوز ودافيد (الأولى صراحةً، والآخر تلميحًا بين السطور) السلطة الفلسطينية بصفتها الطرف الفلسطيني "الأعقل" و"الأكثر اعتدالًا" و"النظيف"، وأظنّ أنّ معظم المثقفين المذكورين سيوافقون على ذلك أيضاً، وهو ما يعكس عمى سياسيًا تجاه الرأي العام الفلسطيني الذي رأى مرارًا في السلطة متعهّدًا فرعيًا لدى إسرائيل، وفي منظمة التحرير طرفًا أكثر فسادًا من حماس. إن هذا الاصطفاف الأعمى مع السلطة الفلسطينية، من دون الرجوع إلى الفلسطينيين أنفسهم، يمثّل على الأرجح الجوهر الجيوسياسي للصهيونية الليبرالية.

لكن ما لفت انتباهي أكثر في المقالة والمقابلة هو الافتراض القائل إنّه لو كانت حماس قد أفرجت عن الأسرى، لانتهت الحرب. وهو ما يعني في صيغة

ينسب ماغيد خطأً إلى كهانا فكرة ترحيل العرب من فلسطين التاريخية، بينما هذه الفكرة كانت مُعلنة صراحة منذ بدايات الصهيونية السياسية لدى عدد من المفكرين الصهيونيين، بل ونوقشت عمليًا في حكومات إسرائيلية متعددة.

أكثر تحديدًا: لو أفرجت حماس عن الأسرى، لكان بإمكانها منع الحرب من الأساس. أعلم أنّ عقولنا منهكة ونعيش في حالة طوارئ مستمرة، لكنني استطعت مع ذلك أن ألاحظ أن هذا طرح غريب وجديد! أقرأه في مقالين مختلفين في العدد نفسه من الصحيفة نفسها. قبل عامين فقط، كانت الساحة الإسرائيلية تعيش حالة انهيار معرفي أمام افتراض الحكومة بأن الضغط العسكري على حماس هو السبيل الوحيد لإعادة الأسرى، بينما كانت في الوقت نفسه تشكّك في نوايا نتنياهو وتعترف بأن هذه السياسة تسببت فعليًا في مقتل عدد كبير منهم. في الأسابيع التي سبقت الغزو الإسرائيلي لغزة، والأشهر التي تلته، كان واضحًا أنّ حماس ترغب في الإفراج عن جميع الأسرى مقابل جميع المعتقلين، وهو ما دعا إليه حتى رئيس الأركان الأسبق شاؤول موفاز (Shaul Mofaz) في ٢٧ تشرين الأول ٢٠٢٣. كما أُفرج عن عدد من الأسرى من دون مقابل، وقد عبّر بعضهم عن شعورهم بأنّ حكومتهم لا ترغب فعلًا في استعادتهم.

الضيق الفكري والنفسي

إن حالة الشلل المعرفي المستمر، وتعارض الحجج على نحو لا يمكن التوفيق بينه، بل وبلوغ حدّ الاستغلاق (aporia)، هي من السمات الأساسية لما كان يُعرف طويلًا بـ "ضربني وبكى، سبقني واشتكى"، وهو نموذج ثقافي في دراسات النقد اليساري الصهيوني. ومن أبرز تجلياته فيلم الأنيميشن الشهير Waltz with Bashir (2008)، حيث يجلس المقاتل الإسرائيلي ذو العينين الزرقاوين على أريكة الطبيب النفسي ليسترجع اعتداءات إسرائيل في جنوب لبنان عام ١٩٨٢. بدأت هذه المراجعات التي يقوم بها الجنود الإسرائيليون حول أفعالهم مع النكبة نفسها في قصص يزهار (Yizhar Smilansky) الشهيرة عام ١٩٤٩، ولا تزال تشكّل جزءًا من الضمير الإسرائيلي المعذّب، وهو ما أطلق عليه العديد من الباحثين اسم "صدمة الجلّاد"؛ صدمة تُخفي في جوانب منها صدمة الضحايا. ومن اللافت أن إيلوز تبني مقالها كلّه على الاستغلاق: فهي تبدأ بوصف الضيق النفسي الذي يصيب المثقفين اليهود اليوم، فيما تتنقل بين تصاعد معاداة السامية في صفوف اليسار والحركة العالمية المؤيدة لفلسطين، وبين بشاعة الحكومة الإسرائيلية اليمينية. وهذه الأخيرة، بخلاف اليسار، تنتقدها على نحو عابر، متذبذبةً بين سياساتها تجاه غزة وسياساتها الداخلية التي، برأيها، تدفن "الدولة اليهودية الديمقراطية" وتحولها إلى ثيوقراطية. لا تبدو "اليهودية المثقفة" في هذا السياق مجرد مراقِبة، بل تكاد تظهر كضحية في زمن الحرب والاضطراب. وفي نهاية المطاف، تبدو وكأنها تتخلى عن جميع الأطراف في إسرائيل/فلسطين، وتدعو إلى خلاص يأتي من الخارج لحماية إسرائيل من نفسها؛ أي لحماية كيان علماني خيّر متخيَّل ذا طابع أوروبي (وبالتالي استعماري) من "جحافل" المتدينين الذين يقطنونه. تاريخيًا، اعتبر كثير من النقاد أن هذه المداولات النفسية، التي تظهر قدرًا كبيرًا من الضمير، كانت وسيلة للهروب من الحلول السياسية، وفي الوقت نفسه لتبرير السلوك الحربي الإسرائيلي.

لا أنكر أن هناك تحولًا في الروح الإسرائيلية نحو مزيد من التدين ونحو عسكرة أكثر فجاجة، لكنني ما زلت أرى أن نموذج "ضربني وبكى، سبقني واشتكى" يجب أن يبقى الأساس في قراءة المجتمع الإسرائيلي. ففي النهاية، فإن "الأغلبية العاقلة" في المركز العلماني (وهي التسمية التي تطلقها على

■ عائلة تعدّ طعام الإفطار في شهر رمضان ٢٠٢٥ في جباليا. (إ.ب.أ)

نفسها عادة) تبتعد تمامًا عن السؤال الفلسطيني، وبذلك تدعم آلة إخضاع الفلسطينيين. الأغلبية هي التي تتحمل المسؤولية الأساسية. لهذا أميل إلى تبنّي آراء عالم السياسة ياغيل ليفي (Yagil Levy)، الذي يرى أن المجتمع الإسرائيلي وقع في "مفارقة العسكرة": فكلما ازداد المجتمع حديثًا عن قضايا حقوق الإنسان، ازداد في الوقت نفسه تباهيًا بعنفه. وبهذا تصبح النزعة نحو الوحشية (ضربني وبكى، سبقني واشتكى) سمة لا تقتصر على اليمين فقط، بل تشمل المجتمع المدني السائد نفسه. وقد جادلت في هذا الاتجاه عند قراءتي للتحول في الدراما التلفزيونية الإسرائيلية: من مسلسل الدراما النفسية Prisoners of War التي بُثت في الفترة نفسها التي ظهر فيها Waltz with Bashir، إلى مسلسل فوضى، وهو عمل إثارة يقوم بالكامل على الأكشن، بطله دائمًا في موضع إطلاق النار بلا تردد؛ وهو العمل الذي حقق نجاحًا هائلًا منذ ٢٠١٦. إن الانتقال من البكاء ("شكى") إلى إطلاق النار ("ضربني") كان تطورًا طبيعيًا يستند إلى القيم العرقية ذاتها؛ فمسلسل أسرى الحرب، كما لدى إيلوز، يرثي إسرائيل "العاقلة" و"العلمانية" داخل البيت المتخيَّل المائل، بشخصياته الشقراء ذات العيون الزرقاء، وخصوصًا رجولته الهشّة والموجوعة المتمثلة في الأبطال الثلاثة الذين قضوا ١٧ عامًا في الأسر.[٥]

كان مسلسل Prisoners of War الخيار الأول لصحيفة نيويورك تايمز كأفضل مسلسل أجنبي في العقد (متفوّقًا حتى على إنتاجات بريطانية)، وكان إلى جانب فوضى (المرتبة السابعة) المسلسلين "الساميين" الوحيدين في تلك القائمة اللافتة.[٦] ومن المثير أنّ احتفاء الصحيفة باليهودية الإسرائيلية العلمانية واللغة العبرية أفسح الباب أمام دخول العربية، لأن العملين الإسرائيليين يتعاملان مع نزع الشخصية عن العرب

وكما أنّ ربط العنف الإسرائيلي بحكومة إسرائيل، واليمين المتطرف، يخفّف المسؤولية عن المجتمع الإسرائيلي الأوسع، فإن تحميل "حماس" كل المآزق يشكّل أيضًا وسيلة للتهرّب من مواجهة قمع التيار الإسرائيلي السائد لنضال الفلسطينيين من أجل تقرير المصير.

بدرجات متفاوتة من الحميمية والعداء. ويمكن لعنوان المسلسل أن يوضح إحدى قضايا جوهرية في الصراع الطويل بين اليهود والفلسطينيين: ففي العبرية الأصلية اسمه "حاطوفيم"، أي المخطوفون، وهو وصف يعبّر عن البقاء البريء في عالم من الوحشية، وليس "أسرى حرب"، وهو مصطلح سياسي يُستخدم في سياق الصراعات. في الخطاب الإسرائيلي، اليهود دائمًا "مخطوفون" بينما الفلسطينيون "أسرى"؛ وهو المصطلح نفسه المستخدم بالعربية في كثير من الأدبيات التي تحتفي بمن يُنظر إليهم كمقاتلين من أجل قضية سياسية عادلة. كان هذا التباين حاضرًا جدًا (وإن تم إنكاره) خلال الأسابيع الطويلة التي تلت ٧ أكتوبر، حين عمدت دولة إسرائيل ووسائل إعلامها إلى طمس التمييز بين الجنود والمدنيين ضمن قائمة الـ ٢٥٠ مخطوفًا. في البداية استخدمت وسائل الإعلام كلمة "مقتول" لجميع الضحايا الـ ١,٢٠٠، رغم أنّ نحو ٤٠٠ منهم كانوا مقاتلين [أي جنود إسرائيليين]. على عكس الأسرى، فإن صفة المخطوف تحمل طابعًا شبه جوهري، لا يرتبط بالظروف أو بالمفاوضات.

أليس هذا شبيهًا بالاتهامات السابقة الموجّهة إلى حماس وإلى اليمين اليهودي، التي تُظهر، فعليًا، كيف يتنازل صاحب السيادة عن سيادته عبر الإيماءة الطفولية المتمثلة في تحميل الطرف الآخر مسؤولية أفعاله هو نفسه؟

بصفتي يهوديًا شرقيًا، لا يسعني إلا أن أتذكّر كيف جرى السخرية من الشرقيين لسنوات عبر التعبير العامي والمتهكّم "[ترجمة حرفية عن العبرية] أكلوا لي وشربوا لي"، وهو استخدام للفعلين "أكل" و"شرب" مع حرف الجر "لي"، بمعنى: "استولوا على ما هو لي". إنه أسلوب بكائي من نوع يا ويلي، مسكين أنا، يُنسب إلى سلوك طفولي لشخص لا يستطيع مشاركة صحنه مع الآخرين. وهذا هو الوجه الآخر لـ "ضربني وبكى، سبقني واشتكى"، ويرتبط بحرمان فعليّ لأولئك الذين كان بكاؤهم (أي مطلبهم) محقًا وضروريًا، ولذلك جرى قمعه باستمرار.

اقتصاد العِرق (This Economy of Race)

تسأل إيلوز، وبحقّ، عن دور المثقف اليهودي في أزمنة الإحراج الأخلاقي. فقد جادل كلّ من أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد منذ زمن طويل بأن دور المثقف هو مواجهة الخطاب المهيمن، أي البحث عن بدائل لما نسمعه يوميًا في الأخبار. ولفهم مسألة الإفراج عن الأسرى، لا يمكن تجاهل التاريخ الطويل للنضال الفلسطيني، الذي كانت الدولة اليهودية هي القامع العملي له. وفي الحقيقة، يجب التذكير بحدث ليس بعيدًا زمنيًا، وكان له دور عميق في تشكيل ما جرى في ٧ أكتوبر وما تلاه: الإفراج عن الجندي الإسرائيلي غلعاد شاليط مقابل ١,٠٢٧ أسيرًا فلسطينيًا. هذا الحدث آسر لأسباب عدة. فبين الأسرى [المحررين] كان يحيى السنوار، مهندس هجوم ٧ أكتوبر، كما أنّ خطف شاليط كان آخر مرة نجحت فيها قوات حماس في التسلل إلى داخل حدود إسرائيل المعترف بها، وهو أمر ينساه كثيرون. لكنّ الجانب الأهم في صفقة شاليط كان الروح المدنية والثقافية التي نشأت خلال خمس سنوات من الحراك [لإطلاق سراح شاليط] الذي حظي بتغطية واسعة. فكما هو الأمر في مسلسلي Waltz with Bashir و Prisoners of War، كانت تلك فترة انغرس فيها الإثوس (ethos) إسرائيلي بكليّته داخل نضال علماني و"عاقل" يقوده شباب الطبقة الوسطى والعليا الذين لم يعودوا قادرين ماليًا على تحمّل تكاليف المعيشة، فيما عُرف بـ

لا تبدو "اليهودية المثقفة" في هذا السياق مجرد مراقِبة، بل تكاد تظهر كضحية في زمن الحرب والاضطراب. وفي نهاية المطاف، تبدو وكأنها تتخلى عن جميع الأطراف في إسرائيل/فلسطين، وتدعو إلى خلاص يأتي من الخارج لحماية إسرائيل من نفسها؛ أي لحماية كيان علماني خيّر متخيَّل ذا طابع أوروبي (وبالتالي استعماري) من "جحافل" المتدينين الذين يقطنونه.

"احتجاجات العدالة الاجتماعية لعام ٢٠١١".

يمكن العثور على رؤية مضادّة للهيمنة بالمعنى الغرامشي الحقيقي في "دليل الخطف" التابع لحماس، الذي تناولته وسائل الإعلام الإسرائيلية عام ٢٠١٠. ففيه يظهر تفضيل واضح [من قبل حماس] لـ المخطوفين الإشكناز، لأن "النظام الإسرائيلي يميل تاريخيًا إلى الدفع أكثر" مقابلهم. السمات الإشكنازية هنا متخيّلة، تستند إلى خطاب استشراقي واسع يتحدث عن خصائص وطبائع إثنية وعرقية؛ أي خطاب يتخيّل "الأوروبيين" أو "الغربيين". بذلك كان شاليط، بأصله الإشكنازي، ولكن الأهم بلونه الشاحب وهشاشته الظاهرة، نموذجًا مثاليًا لهذا التخيّل. يمكن لصفقة شاليط أن تكون مثالًا قويًا على مفارقة العسكرة لدى ليفي: فبالنسبة للمجتمع الإسرائيلي في تلك الفترة، كان من المهم بالقدر نفسه إثبات انتمائهم لـ"الغرب" كما كان مهمًا لحماس أن تخطف جنديًا "إشكنازيًا". وقد وقف رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ووزير دفاعه آنذاك إيهود باراك خلف صفقة شديدة الجدل، لأنها سمحت لهما بإظهار أنه في اقتصاد العِرق هذا، ستدفع الدولة الإسرائيلية "جحافل من المتوحشين" (وفق التصوّر العنصري الضمني) مقابل إسرائيلي واحد يُنمذج "الأوروبي، العلماني، القادم عبر المايفلاور (Mayflower)".[1]

وكما في مفارقة العسكرة، كانت صفقة شاليط تجسيدًا لقيم إنسانية ضمن معادلة مختلّة تمامًا، تشبه ذلك المفهوم المراوغ في القانون الدولي، والمسمى "التناسب" (proportionality)، الذي يتيح للدول قتل المدنيين. قبل خمسة عشر عامًا تناولتُ بدوري نسبة ١ إلى ١,٠٢٧ من منظور ما بعد كولونيالي وعرقي، مستعينًا بالعدسة التي نقرأ عبرها التاريخ الطويل للفلسطينيين والإسرائيليين، حيث تتجسّد فروقات السوق في حصيلة الضحايا: في طرفٍ تتصاعد الأرقام إلى العشرات والمئات، وفي الطرف الآخر تُقاس بالأرقام الأحادية والكسور العشرية.7 كان ذلك قبل حرب ٢٠١٤، حين قُتل في غزة آلاف البشر. من هذا المنظور، تبدو التصعيدات عنصرًا أساسيًا في الصورة: فمجزرة يُقتل فيها أكثر من ألف يهودي في يوم واحد يُفترض، ضمن المنطق السائد، أن تنتج عشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف، من القتلى الغزّيين. هكذا تبدو الأمور "طبيعية": مجرد قوانين السوق كما نفكّر فيها عند مقارنة كلفة الطعام أو الإقامة بين الشمال العالمي والجنوب العالمي. وهذا السوق، أو عمى الألوان [المقصود، ما بين الأبيض الأشكينازي و"الملون" العربي]، هو أيضًا ما يقف خلف فشل كل محاولة لمواءمة الهولوكوست مع أشكال أخرى من الإبادات الجماعية.

أصابتني الدهشة مؤخرًا من إغفال مسألة العِرق عندما قرأت مقالة نافذة للمؤرخ البارز في تاريخ الصهيونية ديريك بنسلار (Derek Penslar)، الذي استعرض تقريبًا كل جانب من جوانب هوس الغرب المحموم بالصراع في فلسطين؛ من الحماسة المسيحية والإسلامية، إلى العداء لليهود والفيلوسامية (philo-semitism)، ومناهضة الاستعمار، والإنسانية الإيثارية (altruistic humanitarianism)، والمصلحة السياسية، من دون أن يذكر العِرق أو الاستشراق ولو مرة واحدة.8 يذكّرنا بنسلار بأن استخدام

١ كانت مايفلاور سفينة إنجليزية أبحرت عام ١٦٢٠ حاملةً جماعة من البروتستانت إلى أميركا الشمالية، وقد جرى لاحقًا تحويلها إلى أسطورة تُجسّد "البدايات الديمقراطية" و"الاستثنائية الأخلاقية". يبيّن النقد التاريخي كيف تُخفي هذه السردية واقع الاستيطان، واقتلاع السكان الأصليين، وبُنى العنف الكولونيالي- المترجم.

يمكن لصفقة شاليط أن تكون مثالًا قويًا على مفارقة العسكرة لدى ليفي: فبالنسبة للمجتمع الإسرائيلي في تلك الفترة، كان من المهم بالقدر نفسه إثبات انتمائهم لـ"الغرب" كما كان مهمًا لحماس أن تخطف جنديًا "إشكنازيًا".

اسم "فلسطين"، كما في عبارة "مؤيد لفلسطين" (Pro-Palestinian)، كان في الأصل علامة تضامن مع الصهيونية، وأسمح لنفسي بإضافة ما هو بديهي: فـ"فلسطين" هو الاسم الروماني-المسيحي لهذه الأرض، وهو ما كان ليُعدّ في العربية مجرد جزء من بلاد الشام الكبرى. إن الهوس، حتى في صورته "الخيّرة"، ليس هوسًا بـ الفلسطينيين أنفسهم، بل بـ مفهوم فلسطين الذي ينتجه الغرب عن ذاته ولذاته.

ربما يتجنب بنسلار الحديث عن العنصرية لأنها بديهية أكثر مما ينبغي؛ فهي عادةً ما تأتي متشابكة مع الدين والمشاعر القومية وغيرها. لكن تحديدًا لهذا السبب، وخصوصًا في عالم الرئيس ترامب حيث لا تُعدّ الصهيونية قيمة بحد ذاتها، بخلاف عالم جو بايدن وغيره من القادة، نظل بلا تاريخ ولا سياق، ونبقى أمام السوق نفسه من الأصباغ المتخيّلة. أستطيع أن أشهد بنفسي أنّه هنا في برلين، حيث أعيش، فإن جميع عمّال توصيل شركة "Wolt" يتمتعون بملامح إثنية-عرقية واضحة تشير إلى أنهم غير بيض. وكما في الشعار الافتتاحي لهذا المقال، فالعاملات المنزليات في إسرائيل/فلسطين كنّ وما زلن يُنظر إليهن باعتبارهن نصف إنسان-نصف كلب، ويتحدثون العربية. وفي الواقع، قد تكون الروح السوقية أقوى في الصهيونية من النزعات الدينية أو القومية نفسها. فمفردة "الريفيرا"، الكلمة ذاتها التي نربطها اليوم بغزة، كانت حاضرة باستمرار في يوتوبيا هرتسل عام ١٩٠٢: أرض قديمة (مهدّمة) تتحوّل إلى أرض جديدة (ومزدهرة)، تمامًا كما يبدو في رؤية ترامب لغزة.

لهذا السبب تبنّى التيار الإسرائيلي المدني السائد [رؤية] ترامب بهذه السهولة. لم يكن الأمر مجرد مناورة ماهرة لإرضاء مَن يمسك بزمام السلطة، بل كان اصطفافًا حقيقيًا مع منطق عرض الواقع: سوق حرّ يفترض أن الجميع فيه متساوون، لكن بعضهم، كما قال الروائي الشرقي سامي ميخائيل (Sami Michael) عام ١٩٧٤، "متساوون أكثر" (are equal more). ومؤخرًا، انتشر على نطاق واسع فيديو كوميدي للفنان الإسرائيلي العلماني أودي كاغان (Udi Kagan)، حيث كشف في خطاب مدته ٢٠ دقيقة تجربة كونه جنديًا يعاني من صدمة ما بعد الحرب في غزة عام ٢٠٠٢. في بدايته يستعمل بالفعل استعارة "ضربني وبكى، سبقني واشتكى"، قائلًا: "لا أريد أن أطلق النار وأبكي"، و[رغم أنه] ذكر مرة واحدة وبشكل عابر: "لقد قمتُ ببعض الأمور المروّعة". ابتهج الكثيرون في اليسار لرؤية، ولو لمرة، محاسبة ذاتية لجندي إسرائيلي سابق في زمن قد يكون فيه السائد هو "إطلاق النار والاحتفال". لكن كاغان تهرّب تمامًا من التاريخ لصالح قيم إنسانية عامة: نعم، أقرّ بأنه ألحق الأذى بالناس، لكنّه حافظ على الادعاء بأنه لم يفعل شيئًا للفلسطينيين ولا لقضيتهم. وينطبق الأمر نفسه على الخطاب الإنساني الذي أحاط بالغزّيين سنوات، وبلغ ذروته غير المعقولة في أحد أكثر أيام الجمعة بشاعة في تاريخ البلاد: ففي أيار ٢٠١٩، حين عادت الممثلة الإسرائيلية في مسابقة اليوروفيجن بعد فوزها، كان كثير من الشبان الإسرائيليين الليبراليين، وكثير من أفراد مجتمع الميم، يحتفلون في تل أبيب، بينما قُتل ستّون غزّيًا أعزل برصاص الجيش أثناء احتجاجهم ضمن "مسيرة العودة". لقد كانت تلك الابتهاجية الليبرالية فعلًا إطلاق نار أثناء الرقص.

يرى اليمين الديني الفلسطينيين كعدوٍّ مطلق، هدفًا للتأنيب والانتقام. وفي نموذج "ضربني وبكى، سبقني واشتكى"، كان المقاتلون الإسرائيليون عبر

ربما يتجنب بنسلار الحديث عن العنصرية لأنها بديهية أكثر مما ينبغي؛ فهي عادةً ما تأتي متشابكة مع الدين والمشاعر القومية وغيرها. لكن تحديدًا لهذا السبب، وخصوصًا في عالم الرئيس ترامب حيث لا تُعدّ الصهيونية قيمة بحد ذاتها، بخلاف عالم جو بايدن وغيره من القادة، نظل بلا تاريخ ولا سياق، ونبقى أمام السوق نفسه من الأصباغ المتخيّلة.

السنين يصوّبون إلى الهدف نفسه: الفلسطينيون، خصومهم. كانوا يطلقون النار على الفلسطينيين، ثم يبكون عليهم، على ضحايا هم أنفسهم تسببوا بها. كان شعورهم بالحرج النفسي نابعًا من إدراك أفعالهم وفي الوقت نفسه تنحية مسؤوليتهم عنها (كما تفعل إيلوز حين تلوم حماس على أفعال إسرائيل). لقد وُجدت دائمًا مفردات النفسانية، الألم، الضمير، والحداد، لكنها اليوم، مع الشكل الجديد للقتال الإسرائيلي العلماني، تأتي منزوعة من سياقها. ويبقى شيء واحد يقاوم: العِرق. تكمن مشكلة العرق في العمى الذي يتطلّبه، خصوصًا داخل الخطاب السائد المهيمن. وأثناء كتابة هذا المقال، وبينما أستدعي أسماء كثير من الباحثين المرموقين في مجالات فكرية مختلفة، ظلّت عالقة في ذهني بعض أسطر من قصيدة للشاعرة والنسوية المزراحية فيكي شيران (Vicky Shiran):

حين يتحدث إليّ أحدهم عن الشعر
أستحضر دائمًا عمتي سيرينا كمثال
وأشتم بصمت

كانت تلك العمّة على الأرجح إنسانة-كلبًا أخرى مثل أمونة، تُستأجر لأعمال النظافة. أما أنا، فعندما أرى أو أقرأ لخبراء "الشرق الأوسط"، أهمس لنفسي:

حين يتحدث إليّ أحدهم عن الجيوسياسة
أفكّر فورًا في العنصرية
وأشتم بصمت

المراجع

١ Shay Hazkani and Tamir Sorek, “Yes to Transfer: 82% of Jewish Israelis Back Expelling Gazans,” Haaretz, May 28, 2025.

٢ Itamar Handelman-Smith, “'Some Say It's the End of Zionism, and I Say That's All Right',” Haarretz, August 29, 2005.

٣ Eva Illouz, "Der Antisemitismus ist globaler und tiefer in die Sprache politischer Eliten eingeschrieben als je zuvor," Die Zeit, August 8, 2025.

٤ Nir Hasson, “One of the Few Israelis with a Direct Line to Gazans Urges the Public to Confront 'Extreme' Horrors,” Haarez, August 7, 2025.

٥ Omri Ben Yehuda, “Shooting, Not Crying: Reckoning with Violence in Prisoners of War, Homeland and Fauda,” Postcolonial Interventions 8:2 (June 2023), 175-221.

٦ Mike Hale, “The 30 Best International TV Shows of the Decade,” The New York Times, December 20, 2019.

٧ Omri Ben Yehuda, "Pale, Extremely Pale, White: A Postcolonial Reading of Gilad Shalit Prisoner Exchange," Eretz HaEmori: Israeli Web Magazine, October 19, 2011 (Hebrew).

٨ Derek Penslar, “Passion and Palestine,” Aeon Magazine, February 3, 2025.